تحقيق التوحيد ... حقُّ الله على العبيد

أحمد سردار محمد شيخ [1]

الملخص

يسعى العبد المسلم في حياته كلها إلى نيل رضا الله تعالى، والفوز بمحبته، مما يكسبه الهداية والسعادة والطمأنينة والحياة الكريمة في هذه الحياة، والأمن والكرامة والجنة في الحياة الآخرة الباقية. ولا سبيل له إلى ذلك إلا بتوحيد الله سبحانه وإفراده بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وذلك هو ما خُلِق الإنسان من أجله، وأُنزِلت له الكتب، وأرسلت به الرسل.

ويهدف هذا المقال إلى الإسهام في بيان جانب عظيم من جوانب التوحيد، وهو تحقيق التوحيد، بمعرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملا، وتخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

ولما كان تحقيق التوحيد على مراتب متفاوتة؛ جاء إيضاح هذه المراتب (وهي ثلاثة: أصل التوحيد، وكمال التوحيد الواجب، وكمال التوحيد المستحب)، مع التعريف بكلٍّ منها، وبيان حقيقتها، وكيفية تحقيق التوحيد فيها.

كما أوضح المقال الأدلة الدالة على مراتب تحقيق التوحيد، وبيّن جملةً من فضائله العظيمة في الدنيا والآخرة، وبعضاً من أعظم الوسائل المعينة عليه، وختم المقال ببيان أهم الأمور التي تعوق العبد عن تحقيق التوحيد، وهي إما أن تعوقه عن أصل التوحيد، أو كمال التوحيد الواجب، أو كماله المستحب.

[1] *أستاذ مساعد بجامعة جازان، المملكة العربية السعودية.*

True Belief as Allah's Rights on His Servants

Ahmed Sardar Mohammed Sheikh[1]

Abstract

Muslim in his entire life tries to Secure the Almighty God's blessings as well as His love, which bring to him guidance, happiness and peaceful mind and decent life in this world plus security and dignity, and Paradise healfire. Therefore, there is no way to have that except by Oneness of Allah's Lordship, worship, and belief in all the Names and Attributes that Allah has described for Himself. This is the reason for human creation, and sending of books and prophets to him. This article aims to clarify the achievement of Oneness of Allah, by knowing Him and seeing His reality, then to practice them, and absolving Him form polytheism, heresies and sins. As the sake of monotheism on varying orders; this study clarifies the origin of monotheism, completeness of obligation and desirable of monotheism by showing the definition, statement of identity, and how to achieve monotheism. The article also points out evidences on varied ways of monotheism achievement, and clarifies the great virtues in this world and hereafter, and also clarifies the greatest ways to help do so. The article concludes by clarifying the most important matters that hinder human's achievement of monotheism, which is either constraint about the origin of monotheism, or completeness of obligation for a desirable monotheism

Keywords : Monotheism, Worship

[1] *Associate Professor, Jazan University, Saudi Arabia*

المقدمة

الحمد لله الكريمِ المتعال، الواحدِ الأحدِ ذي الكمال والجلال والجمال، والصلاة والسلام على نبينا محمد البشير النذير، السراج المنير، وعلى آله وصحبه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان واقتفى الآثار. وبعد:

لا أحد أعلم بالخلق من الله، فهو الخالق؛ أوجدهم من العدم، وهو العليم؛ لا يعزب عن علمه شيء من خلقهم وأحوالهم وطبائعهم، وهو الحكيم؛ أحكم خلقهم ولغايةٍ عظيمة أوجدهم. والربُّ العظيم القدير الذي أوجد الإنسان، وعَلِم ما يُصلح شأنَه في الحال والمآل، وجعله في أحسن تقويم، وخلقه لحكمة عظيمة؛ أنزل عليه كتبه وشرائعه، وأرسل إليه رسله، ليؤمن الإيمانَ الجازم بأنه سبحانه هو الرب الخالق الرازق الملك المدبّر، وأنه المتفرد بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ويفرده سبحانه بالعبادة وحده لا شريك له، وهذا هو التوحيد الذي خُلِقت لأجله الخليقة: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} [الذاريات:56]، قال ابن عباس –رضي الله عنهما–: "لِيُقِرّوا بالعبودية طوعاً وكرها" [الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (444/22)]، وهو الذي أرسِلت له الرسل:{ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}[النحل:36].

وجاءت الرسالةُ الخاتمة، رسالةُ محمد ﷺ، مقرّرةً هذا التوحيدَ أعظم تقرير وأتمّه، فأول ما يدخل به الإنسان في الإسلام هو التوحيد: "أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" [البخاري، الصحيح، (17/1)؛ مسلم، الصحيح، (53/1)]، وهو مفتاح الجنة: "من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة" [أبو داود، السنن، (207/2)، وهو حديث حسن: الألباني، إرواء الغليل، (149/3–150)]، بل "كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم" [ابن القيم، مدارج السالكين، (450/3)].

فحقٌّ على العبد المسلم أن يصرف عنايته كلها في تحقيق التوحيد، الذي يكون به فلاحه وسعادته وكماله في الدنيا والآخرة، و(التحقيق): مصدر الفعل (حَقَّقَ) الثلاثي المزيد بتضعيف العين، يقال: (حَقَّقَه – يُحَقِّقه – تحقيقاً)، وأصل مادته: الحاء والقاف المضعَّفة (حَقّ)، وهو أصل واحد يدل على إحكام الشيء وصحته [انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، (15/2)]، يقال: (حقَّه وأَحَقَّه وحَقَّقه): إذا أوجبه وأثبته وصار عنده لا يُشك فيه وكان منه على يقين [انظر: ابن منظور، لسان العرب، (49/10)؛ الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (ص1129)]، والمراد بتحقيق التوحيد: "معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علماً وعملا" [آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب

التوحيد، (ص99)]، و"تخليصه وتصفيته من شوائب(3) الشرك والبدع والمعاصي" [آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، (155/1)].

وتحقيق التوحيد يختلف باختلاف مراتب التوحيد، وذلك أن التوحيد له ثلاث مراتب: أصل التوحيد، وكمال التوحيد الواجب، وكمال التوحيد المستحب.

أما أصل التوحيد فهو الذي لا يعدُّ العبد موحِّداً إلا به، وهو الإتيان بالشهادتين، مع العلم بمعناهما، والعمل بمقتضاهما، ولا بد في تحقيقه من اعتقاد القلبِ وحدانيةَ الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإتيان بالشهادتين، والعمل بمقتضى ذلك بالقلب واللسان والجوارح، والبعد عما ينافيه أو يضادّه.

فهاهنا ثلاثة أمور لا بد منها، وهي [انظر: ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، (85/1)]:

1- العلم، قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله}. [محمد:19].

2- الاعتقاد، قال تعالى عن الكافرين: {أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب} [ص:5]، فأخبر سبحانه عنهم أنهم ما اعتقدوا انفراد الله بالألوهية [انظر: آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، (ص79-82)].

3- الانقياد، قال تعالى:{إنهم كانوا إذا قيل لهم إله إلا الله يستكبرون* ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون} [الصافات:35-36].

ومن حقَّق أصل التوحيد فهو المسلم الذي تحصل له العصمة من الخلود في النار، ويدخله الله الجنة برحمته، ومن لم يفرد الله بالربوبية والأسماء والصفات، أو صرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله؛ فإنه لم يأتِ بأصل التوحيد ولم يُحقِّقه، بل أتى بما يناقضه وينافيه، فلا يعدُّ موحِّداً على الحقيقة وإن نطق بالشهادتين بلسانه [انظر: المرجع السابق، (ص79)].

وأما كمال التوحيد الواجب فإن تحقيقه يكون بترك الشرك بنوعيه (الأصغر والأكبر) والبدع والمعاصي، فلا يكون العبد محقِّقاً للتوحيد الواجب عليه حتى يَسْلَم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي. وهذا النوع يتفاوت المسلمون في تحقيقه تفاوتاً عظيماً:

فمنهم من حقَّق كمال التوحيد الواجب، فسَلِم من الشرك الأكبر والأصغر، وقام بقلبه "من محبة الله، والخضوع له والذل، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهة الأعلى، بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض؛ ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها" [ابن القيم، مدارج السالكين، (330/1)]؛ فهذا يحرم على النار وإن وقعت منه ذنوب؛ فإن ما معه من الإيمان والإخلاص والمحبة واليقين لا يترك له ذنباً إلا يُمحى كما يُمحى الليل بالنهار [انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان، (63/1-64)؛ مدارج السالكين (358/1-359)؛ آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، (ص80)؛ ابن قاسم، حاشية كتاب التوحيد، ص(35)]، وهذا هو المقصود بقوله ﷺ في حديث عتبان بن مالك: "إن الله قد حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك

(3) الشوائب: الأقذار والأدناس. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (512/1).

وجه الله" [البخاري، الصحيح، (164/1)؛ مسلم، الصحيح، (61-62)]، وبقوله ﷺ -فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى-: "يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بِقُرَاب(4) الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة" [الترمذي، السنن، (548/5)، وهو حديث صحيح: الألباني، صحيح سنن الترمذي، (176/3)].

ومنهم من ضعُف تحقيقه لكمال التوحيد الواجب، فسَلِم من الشرك الأكبر دون الأصغر، ثم لم يأتِ بما يناقض ذلك:

فمن أهل العلم من ذهب إلى أن حَسَنَة توحيده لا يقاومها شيء من السيئات، فيَرْجُح بها ميزان حسناته، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، ودليلهم: حديث البطاقة: "يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشَر له تسعة وتسعون سِجِلا(5)، كل سجل مد البصر، ثم يقول الله ﷻ: هل تنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتي الحافظون؟ ثم يقول: ألك عن ذلك حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بِطاقَة(6) فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. قال: فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلَم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت(7) السجلات وثقلت البطاقة" [الترمذي، السنن، (24/5)، ابن ماجه، السنن، (1437/2)، وهو حديث صحيح: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، (428/2)].

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن شركه الأصغر لا يُغفَر له، ويستوجب به دخول النار، ثم مصيره بعد ذلك إلى الجنة، وهؤلاء استدلوا بعموم قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ [النساء:48]، فإن قوله: {أن يشرك} في تأويل مصدر، والمعنى: إن الله لا يغفر شركاً به، وهو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم، فيدخل فيه الشرك الأكبر والأصغر، أما الأكبر فلا يغفره الله، وأما الأصغر فيستوجب صاحبه دخولَ النار ثم يدخله الله الجنة برحمته. [انظر في هذه المسألة: ابن تيمية، الرد على البكري، (ص300-301)؛ ابن القيم، مدارج السالكين، (335/1-337)؛ آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، (ص88-89)؛ ابن عثيمين، القول المفيد، (110/1-111)].

ومن المسلمين مَن سَلِم مِن الشرك الأكبر دون الأصغر، وأتى -مع ذلك- بسيئات أوهنت توحيده فأضعفته، وأنقصَت من كمال الإخلاص والصدق واليقين بقدرها، فمثل هذا لا تقوى حسنة توحيده على محو السيئات، بل ترجح سيئاته على حسناته، ويكون مستحقاً لدخول النار [انظر: آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، (ص89-90)].

(4) أي: بما يُقارِب مِلْءَ الأرض. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (53/4).

(5) السجلّ: الكتاب الكبير. انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (866/2).

(6) البطاقة: الرقعة الصغيرة. انظر: المرجع نفسه، (353/1).

(7) الطَّيْش: الخِفّة، أي: خَفَّت. انظر: المرجع نفسه، (335/3).

ومنهم من يضعف تحقيقه لكمال التوحيد الواجب أكثر من ذلك، حتى لا يبقى في قلبه إلا أصل التوحيد.

وهذا التفاوتُ في تحقيق التوحيد الواجب (أصله وكماله) قد دلت عليه النصوص، ومن ذلك: الأحاديث التي فيها تفاوت الإيمان في قلوب الموحدين الذين يخرجون من النار، ومنها: حديث أنس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير" وفي رواية: "من إيمان" مكان: "من خير". [البخاري، الصحيح، (24/1)؛ مسلم، الصحيح، (125/1)]، وكذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرِّم الله صُوَرَهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا" [البخاري، الصحيح، (2706/6)؛ مسلم، الصحيح، (167/1)].

وأما كمال التوحيد المستحب فإن تحقيقه يكون بترك "ما لا بأس به حذراً مما به بأس، وحقيقته هو انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره" [ابن قاسم، حاشية كتاب التوحيد، (ص37)]، وهذا هو أعلى مراتب التوحيد وأكملها، وقد وردت فيه أحاديث تبيّنه:

فمنها: قوله ﷺ في صفة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب: "هم الذين لا يَسْتَرْقُون، ولا يَكْتَوُون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون" [البخاري، الصحيح، (2157/5)؛ مسلم، الصحيح، (199/1-200)].

فوصفهم ﷺ بأنهم "لا يسترقون" أي: لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم ويقرأ عليهم مع أنه جائز، وذلك "لقوة اعتمادهم على الله، ولعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله، ولما في ذلك من التعلُّق بغير الله" [ابن عثيمين، القول المفيد، (97/1)]، ووصفهم بأنهم "لا يكتوون" أي: لا يطلبون من غيرهم أن يكويهم، والكيُّ في نفسه جائز، ولكن تركه أولى وأفضل وأكمل في تحقيق التوحيد [انظر: ابن القيم، زاد المعاد، (65/4-66)؛ ابن قاسم، حاشية كتاب التوحيد، (ص45-46)]. ثم أخبر ﷺ بالحامل لهم على ذلك وهو التوكل فقال: "وعلى ربهم يتوكلون"، فهؤلاء "تركوا الشرك رأساً، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويض أمورهم إليه، وثقتهم به، ورضاهم عنه، وصدق الالتجاء إليه، وإنزال حوائجهم به سبحانه وتعالى، والاعتماد بالقلب الذي هو نهاية تحقيق التوحيد، وهو الأصل الجامع الذي تفرعت عنه تلك الأفعال والخصال" [ابن قاسم، حاشية كتاب التوحيد، (ص45-46)].

ومنها: قوله ﷺ لابن عباس -رضي الله عنهما-: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله" [الترمذي، السنن، (667/4)، وهو حديث صحيح: الألباني، صحيح سنن الترمذي، (309/3)]، فإن سؤال المخلوقين والاستعانة بهم -فيما يقدرون

عليه– جائز، ولا يقدح ذلك في أصل التوحيد ولا كماله الواجب إذا لم يكن للقلب تعلُّق بهم، وكان تعلقه بالله وحده، ولكن النبي ﷺ أرشد إلى ما هو الأفضل والأكمل في تحقيق التوحيد، وهو الاستغناء بسؤال الله والاستعانة به عن النظر إلى المخلوقين؛ ذلك "لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على دفع هذا الضرر، ونيل المطلوب، وجلب المنافع، ودرء المضار، ولا يصلح الذل والافتقار إلا لله وحده؛ لأنه حقيقة العبادة...، وأما الاستعانة بالله ﷻ دون غيره من الخلق؛ فلأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ﷻ، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول" [ابن رجب، جامع العلوم والحكم، (ص192)، وانظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (1/181–182، 10/194–195)].

وكمال التوحيد المستحب، الذي هو درجة المقربين، يحصل للعبد بأن "ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، ويثبت في قلبه ألوهية الحق، فيكون نافياً لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتا لألوهية رب العالمين رب الأرض والسموات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه، فيكون مُفَرِّقاً: في علمه وقصده، في شهادته وإرادته، في معرفته ومحبته؛ بين الخالق والمخلوق، بحيث يكون عالما بالله تعالى، ذاكرا له، عارفا به، وهو مع ذلك عالم بمباينته لخلقه وانفراده عنهم وتوحده دونهم، ويكون محبا لله، معظما له، عابدا له، راجيا له، خائفا منه، مواليا فيه، معاديا فيه، مستعينا به، متوكلا عليه، ممتنعا عن عبادة غيره والتوكل عليه والاستعانة به والخوف منه والرجاء له والموالاة فيه والمعاداة فيه والطاعة لأمره، وأمثال ذلك مما هو من خصائص إلهية الله سبحانه وتعالى، وإقرارُه بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره" [ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (10/225)، وانظر: المرجع نفسه، (2/314، 343، 369، 8/337، 517، 520، 10/198، 225، 331–332، 13/199–200، 14/280)، ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، (5/347–348)].

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة بدلالات متنوعة على المراتب الثلاث لتحقيق التوحيد، وتفاوت المؤمنين في ذلك، ومن تلك الأدلة والدلالات:

أ– النصوص التي دلت على تفاوت المؤمنين الموحدين في الدنيا، ومنها: قوله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير} [فاطر:32]، فقسَّم سبحانه المصطَفَين من عباده (وهم المؤمنون الموحدون) إلى ثلاثة أقسام، هي:

– السابق بالخيرات، وهو الذي أدى الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فهو الذي حقَّق كمال التوحيد المستحب.

– المقتصد، وهو الذي اقتصر على أداء الواجبات وترك المحرمات، فهو الذي حقق كمال التوحيد الواجب.

– الظالم لنفسه، وهو الذي تجرأ على بعض المحرمات، وقصّر في بعض الواجبات، مع بقاء أصل الإيمان والتوحيد معه، فهو الذي حقق أصل التوحيد، وقصّر في الإتيان بكماله الواجب

[انظر: العبّاد، زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، (ص61-62)].

ب- النصوص التي دلت على تفاوت نور المؤمنين الموحدين في الآخرة، ومنها: قوله تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم} الآية [الحديد:12]، عن ابن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "فيُعطَون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة، فإذا أضاء قدّم قدمه وإذا طفئ قام" [الطبراني، المعجم الكبير، (357/9)؛ الحاكم، المستدرك، (408/2)، وهو حديث صحيح: الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، (227/3)].

ج- النصوص التي دلت على تفاوت سرعة مرور المؤمنين الموحدين على الصراط، ومنها: قوله ﷺ: "فيمرّ المؤمنون كَطَرْف (8) العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد (9) الخيل والركاب(10)" [البخاري، الصحيح، (2706/6)؛ مسلم، الصحيح، (167/1)].

د- النصوص التي دلت على تفاوت التوحيد والإيمان في قلوب من دخل النار من أهل التوحيد، وقد سبق ذكر دليلين يدلان على ذلك.

هـ- النصوص التي دلت على تفاوت درجات المؤمنين الموحدين في الجنة، ومنها: قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان}[الرحمن:46]، وذكر بعض أوصافهما، ثم قال:{ومن دونهما جنتان} [الرحمن:62]، وذكر بعض أوصافهما، فتفاوُت درجات المؤمنين الموحدين في الجنة يدل على تفاوُتهم في التوحيد والإيمان قوة وضعفاً، زيادة ونقصا [انظر: العبّاد، زيادة الإيمان ونقصانه، (ص49-50)].

ولتحقيق التوحيد -بمراتبه الثلاث- فضائل عظيمة في الدنيا والآخرة، ومن أعظمها:

1- أن من حقّق التوحيد حصلت له في الدنيا العصمة في الدم والمال إلا بحقه، كما في قوله ﷺ: "أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" [سبق تخريجه].

2- أن من حقق التوحيد حصل له من الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة بحسب ما قام به من مراتب التوحيد الثلاث، فمن حقق التوحيد بكماله المستحب، أو بكماله الواجب ولم يأتِ معه بذنوب؛ حصل له الأمن التام والاهتداء التام، ومن حقق كمال التوحيد الواجب وأتى مع ذلك بذنوب، أو حقق أصل التوحيد فقط، حصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من توحيده. وهذا يدل له قوله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[الأنعام:82]، مع النصوص الكثيرة التي بيّنت أن أهل الكبائر معرَّضون للخوف، وأن منهم من يدخل النار بذنوبه [انظر: آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد، (ص72-73)؛ ابن عثيمين، القول المفيد، (58/57/1)]. وقد صحّ أنه لما نزلت هذه الآية

---

(8) الطَّرْف: إطباق الجفن على الجفن. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (213/9).

(9) جمع أجواد، وأجواد: جمع جواد، وهو الفرس السابق الجيّد. انظر: المرجع نفسه، (136/3).

(10) هي الإبل التي يُسار عليها، مفردها: راحلة، ولا واحد لها من لفظها. انظر: المرجع نفسه، (866/2).

قال الصحابة ﷺ للنبي ﷺ: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: "ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: {يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان:13]" [البخاري، الصحيح، (1262/3)؛ مسلم، الصحيح، (114/1)]، "وقول النبي ﷺ: إنما هو الشرك، إن أراد به الشرك الأكبر فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعِد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد إلى ذلك. وإن كان مراده جنس الشرك... فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه" [ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (82/7)].

3- أن من حقق التوحيد حصلت له شفاعة النبي ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: "لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه" [البخاري، الصحيح، (2402/5)].

4- أن من حقق التوحيد ودخل النار فإنه لا يُخلَّد فيها، بل يُعذَّب على قدر ما شاء الله له من التعذيب، ثم يخرج من النار ويكون مصيره إلى الجنة قطعاً، كما سبق في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

5- أن من حقق كمال التوحيد الواجب وحصلت له معه ذنوب مُحِيت عنه تلك الذنوب وغُفِرت له، واستحق دخول الجنة ابتداءً [انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان، (63/1-64)]، كما في حديث البطاقة المذكور سابقاً، وحديث: "يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بِقُرَاب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة" [سبق تخريجه].

6- أن من حقق كمال التوحيد الواجب أو المستحب واستحقّ دخول الجنة ابتداءً، ممن يأذن الله له بالشفاعة في المؤمنين الذين دخلوا النار [انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (414/14)]، وهو ما يدل عليه حديث أبي سعيد الخدري ﷺ المذكور سابقاً.

7- أن من حقق كمال التوحيد المستحب حفظه الله من تسلط الشيطان عليه وإغوائه إياه، كما قال تعالى:{قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين} [الحجر:39-42]، وقال سبحانه: {إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون} [النحل:99]، ومن كانت هذه حاله فإنه أبعد ما يكون من الذنوب والمعاصي، فضلاً عن غيرها، "وكلما حقّق العبدُ الإخلاصَ في قول: لا إله إلا الله، خرج من قلبه تألُّه ما يهواه، وتُصرَف عنه المعاصي والذنوب" [ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (260/10-261)، وانظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان، (89/1-99)]، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام:{كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين} [يوسف:24]، وقال سبحانه:{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} [الأعراف:201].

8- أن من حقق كمال التوحيد المستحب دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، يدل عليه حديث عرض الأمم على النبي ﷺ، وفيه: "إذ

رفع لي سواد(11) عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب" [البخاري، الصحيح، (2157/5)؛ مسلم، الصحيح، (199/1-200)].

ومن أعظم الوسائل المعينة على تحقيق التوحيد ما يأتي:

1- العلم، "والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص" [ابن حجر، فتح الباري، (141/1)، وانظر: العبّاد، زيادة الإيمان ونقصانه، (ص167-177)]. ومن الآيات التي تبيّن أثر العلم في تحقيق التوحيد: قوله تعالى:{إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء:107-109]، وقوله سبحانه: {وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم} [الحج:54]، وقوله ﷻ: {إنما يخشى الله من عباده العلماء} [فاطر:28].

2- الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، "فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها، في الدنيا، وعند الموت، وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله ﷻ، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه" [ابن رجب، جامع العلوم والحكم، (ص192)].

3- تجريد المتابعة للنبي ﷺ وكمالها، فإن "صاحب هذه المتابعة لا يبقى مريدا إلا ما أحبه الله ورسوله، ولا كارها إلا لما كرهه الله ورسوله، وهذا هو الذي يحبه الحق...، وهو المتقرب إلى الله بما دعا إليه الرسول من فرض ونفل، ومعلوم أن من كان هكذا فهو يحب طاعة الله ورسوله، ويبغض معصية الله ورسوله" [ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 338/8-339)، وانظر: المرجع نفسه، (333/1)، ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، (ص451-453)].

وثمة أمور تعوق العبد عن تحقيق التوحيد، وهي إما أن تعوقه عن أصل التوحيد، أو كمال التوحيد الواجب، أو كماله المستحب، ومن تلك العوائق:

1- الجهل، وهو من أعظم أسباب نقص التوحيد وعدم تحقيقه، فإن الجاهل -لفرط جهله وقلة علمه- يؤثر محبة وفعل ما يضره ويشقى به ويتألم به على ما فيه نفعه وفلاحه وصلاحه، فيقع في الظلم والعدوان وارتكاب الفواحش واقتراف المناهي، بل وفي الشرك، قال تعالى عن قوم موسى:{قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون} [الأعراف:138]، وقال: {قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون} [الزمر:64] ، فالجهل بالله وبأسمائه وصفاته وبثوابه وعقابه هو سبب ما يقع فيه الناس من شرك وكفر وفجور وارتكاب

(11) *السواد: الشخص الذي يُرى من بعيد. انظر: ابن حجر، فتح الباري، (407/11).*

للمعاصي [انظر: العبّاد، زيادة الإيمان ونقصانه، (ص235-238)].

2- الشرك بنوعيه (الأكبر والأصغر)، فالشرك الأكبر يعوق عن تحقيق أصل التوحيد، فيكون صاحبه محروماً من خير الدنيا والآخرة، مستوجباً للخلود في النار، كما قال تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} [المائدة:72]. والشرك الأصغر يقدح في كمال التوحيد الواجب، ويكون صاحبه معرَّضاً لعذاب الله وعقوبته.

3- فعل المعاصي والذنوب، فإن المعاصي والذنوب تقدح في كمال التوحيد وتنقص ثوابه، وقد يفعل العبد المعصية حتى يصل إلى الاستهانة بها، وقد يتوصل بالمعصية الصغيرة إلى فعل الكبائر والموبقات، وقد تقوى المعاصي على توهين توحيده وإضعافه حتى تعوقه عن تحقيق كمال التوحيد الواجب فيكون معرضاً للوعيد والعذاب [انظر: الرجع نفسه، (ص242-249)].

4- الاغترار بالدنيا والافتتان بها، فإن الاشتغال بعرَض الحياة الدنيا، وشغل الأوقات بها، والانهماك في طلبها، والجري خلف ملذاتها وفتنها ومغرياتها؛ يورِث في قلب العبد التثاقلَ عن طاعة الله وطلب الآخرة، مما يجعله قليل الحرص على ما يزيد إيمانه ويحقق توحيده، فيفوت عليه من الخير والأجر ما ينقص توحيده، وربما حصل له من التفريط بسبب انشغاله بالدنيا ما يوهن توحيده ويضعفه [انظر: المرجع نفسه، (ص256-260)]، ومما يبين ذلك: قوله ﷺ: "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم" وفي لفظ: "وتلهيكم كما ألهتهم" [البخاري، الصحيح، (1473/4، 2361/5)؛ مسلم، الصحيح، (2273/4)].

فتحقيق التوحيد، والبلوغ به إلى أعلى مراتبه، أجلُّ ما ينبغي أن يصرف العبد إليه همَّه وشغله وحياته، فهو صلاحه وفلاحه وخيره وأمانه في الدنيا والآخرة، وإن الناظر في سيرة أولئك الرعيل الأول من هذه الأمة يرى عياناً ما كانوا فيه من الإيمان والعلم والعمل، وما كانت تزخر به حياتهم من الطمأنينة والسكينة والعلو والرفعة والنصر، وهكذا كان المسلمون من بعدهم، فحازوا الدين والدنيا، فهم أسود النهار رهبان الليل، عمروا دينهم ودنياهم، وفاقوا الأمم والحضارات، وورثوا لمن بعدهم مجداً وتاريخاً مجيداً لا يمكن لهم أن يستعيدوه ويعيشوه وينعموا به إلا بتحقيق التوحيد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع:

ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري – النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى؛ محمود محمد الطناحي – المكتبة العلمية، بيروت – 1399هـ/1979م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي – إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، دار المعرفة، بيروت – الطبعة الثانية – 1395هـ/1975م.

ابن القيم – زاد المعاد في هدي خير العباد – تحقيق: شعيب الأرناؤوط؛ عبد القادر الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة؛ مكتبة المنار الإسلامية، بيروت؛ الكويت – الطبعة: الرابعة عشرة – 1407هـ/1986م.

ابن القيم – مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – تحقيق: محمد حامد الفقي – دار الكتاب العربي، بيروت – الطبعة: الثانية – 1393هـ/1973م.

ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم – اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم – تحقيق: محمد حامد الفقي – مطبعة السنة المحمدية، القاهرة – الطبعة: الثانية – 1369هـ.

ابن تيمية – الرد على البكري – تحقيق: محمد علي عجال – مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة – الطبعة: الأولى – 1417هـ.

ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم – جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم؛ ساعده: ابنه محمد – دار الكتب، الرياض– 1412هـ/ 1991م.

ابن تيمية – منهاج السنة النبوية – تحقيق: د. محمد رشاد سالم – مؤسسة قرطبة – الطبعة: الأولى – 1406هـ.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – دار الفكر.

ابن رجب، أبو الفرج عبدالرحمن بن أحمد – جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم – دار المعرفة، بيروت – الطبعة: الأولى – 1408هـ.

ابن عثيمين، محمد بن صالح – القول المفيد على كتاب التوحيد – اعتناء: د. سليمان أبا الخيل ؛ د. خالد المشيقح – دار العاصمة، الرياض – الطبعة: الأولى – 1415هـ.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا – معجم مقاييس اللغة – تحقيق: عبدالسلام محمد هارون – دار الفكر – 1399هـ/1979م.

ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد – حاشية كتاب التوحيد – الطبعة: الثالثة – 1408هـ.

ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني – السنن – تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي – دار الفكر، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم – لسان العرب – دار صادر، بيروت – الطبعة: الأولى.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني – السنن – تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد – دار الفكر.

آل الشيخ، سليمان بن عبد الله – تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد – دراسة وتحقيق: زهير الشاويش – المكتب الإسلامي، بيروت؛ دمشق – الطبعة: الأولى – 1423هـ/2002م.

آل الشيخ، عبدالرحمن بن حسن – فتح المجيد شرح كتاب التوحيد – تحقيق: محمد حامد الفقي – دار الكتب العلمية، بيروت.

الألباني، محمد ناصر الدين – إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل – المكتب الإسلامي، بيروت – الطبعة: الثانية – 1405هـ/1985م.

الألباني – صحيح الترغيب والترهيب – مكتبة المعارف، الرياض – الطبعة: الخامسة.

الألباني – صحيح سنن ابن ماجه– المكتب الإسلامي، بيروت– الطبعة: الثالثة– 1408هـ/1988م.

الألباني – صحيح سنن الترمذي– المكتب الإسلامي، بيروت– الطبعة: الثالثة – 1408هـ/1988م.

البخاري، محمد بن إسماعيل – الصحيح – تحقيق: د. مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير، اليمامة، بيروت – الطبعة: الثالثة – 1407هـ/1987م.

الترمذي، محمد بن عيسى – السنن – تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون – دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الحاكم، محمد بن عبدالله – المستدرك – تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا – دار الكتب العلمية، بيروت – الطبعة: الأولى – 1411هـ/1990م.

الطبراني، سليمان بن أحمد – المعجم الكبير – تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي – مكتبة العلوم والحكم، الموصل – الطبعة: الثانية – 1404هـ/1983م.

الطبري، محمد بن جرير – جامع البيان في تأويل القرآن – تحقيق: أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة، بيروت – الطبعة: الأولى – 1420هـ/2000م.

العبّاد، عبدالرزاق بن عبدالمحسن – زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه – مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض – الطبعة: الأولى – 1416هـ/1996م.

الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب – القاموس المحيط – تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة – مؤسسة الرسالة، بيروت – الطبعة: الرابعة – 1415هـ/1994م.

مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري – الصحيح – دار إحياء التراث العربي، بيروت – تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.